مشكلة حرية الفكر

بقلم محيي الدين محمد

هي كلمة جد قديمة، قدم النطق والصبر مطموسة في شرقنا العربي.. أعيدها للتذكير لكي يفجر التذكير عملية نجهلها تماما وهي التطور .

العالم يتطور ويصعد الى اعلى ماديا وفكريا في خطوات غير منتظمة ، وكل خطوة هي وقفة صغيرة تمتاز عن السابقة لها بافكار اكثر تطورا وتقدمية بحكم التطور المادي الحادث .. ! كل وقفة هي عصر بعينه له تفكيره ووسائله وسبله وغاياته وروحه ، كما ان له صورته الخاصة التي تختلف عن صورة العصرين السابق واللاحق له ، وذلك طبيعي جدا ، فطوفان الافكار المدومة في عصر ، هي خلاصة اوضاعه السياسية والاقتصادية والنفسية والثقافية ، يظل العصر تابعا لها حتى يحولها تغير جديد نشأ بفضل بعض رجال العصر الذين قذفوا بانفسهم الى امام مكونين جسرا باجسادهم تعبر فوقه بقية العصور ..

وطبيعي ان يجد هؤلاء الرجال التقدميون سدودا منيعة توقف تيار افكارهم ، وتعطل أراداتهم ، فالتطور لا يفرض حتمياته بسهولة ، لان السلطة والتقاليد والدين ، بصفتها اخطر صور السدود ، تعيش في قلوب الافراد وتنفث فيها السم لتمنع التحرر وتؤكد الجمود والرخامية . .

ان مهمة السلطة هي المحافظة والابقاء على الوضع القائم ، فهي تعبير عن هذا الوضع : عن رجاله وحكامه والطبقة التي تعين له حظوظه ومساره . فاو دافعت السلطة ، او حتى تغاضت عن الافكار الجديدة ، كان ذلك رضى منها لسحق ذاتها ، واعلانا عن سلطة جديدة تقوم فوقها ، وذلك ما تأباه وترفضه وتخشاه . الطبقة الحاكمة تريد ان تحكم الى الابد ، والطبقة المظلومة لا تريد ان تكون مظلومة الى الابد ... الحاكم يقهر تحرر الجمهور ووعيه باشاعة روح التقاليد ونظم الاجداد ، فوجود السلطة يعني ضرورة الابقاء على (النظام الراهن) كيفما كان هذا النظام .. ولذلك اضحى طبيعيا لواد فكرة تغيير النظام ، ان تصادر السلطة الفكر وان تحرق البشر وان تسجنهم وان تكمم افواههم ..

وبالنسبة للجيل الجديد ، تمكن السلطة للوضع القائم عن طريق التدريس في المعاهد الصغرى والكبرى وبطريق المنح والمكافآت السنوية ، وبطريق الادارة المنظمة تحت يديها ، وكلما زادت الوسائل او تحسنت صور التعبير عن الحرية ، كلما زادت الشبكة البوليسية سطوة واتسع نطاق جحيمها ، وقد تتجه السلطة في معظم الحالات الى شراء ضمائر المشرفين على وسائل النشر او طيهم تحت جناحيها ، وفي بعض الحالات تغلق دور النشر وتصادر الكتب والافكار ، ويقتل الكتاب الاحرار ، وهي الصورة الغالبة من صور الاجرام في شرقنا العربي ..

ان السلطة تعتمد اكثر اعتمادها على التقاليد بالذات ، وهي في سبيل ذلك تضع بوليسها وجيشها وكل قوتها لخدمة التقاليد وابقائها على صورتها ... والتقاليد صورة فردية من صور القسر الجماعي القديم ، وهي قوة لا تحتاج في نظر السلطة الى من يدفع لها الاجر او المكافأة ، اذ هي قهر نفسي مدفون في القلب البشري ، وهي لا تحتاج الا لقدر من الجهل والحماسة .. وذلك متوفر في ملايين الناس في اقطارنا العربية ..

التقاليد هي افكار عصر سابق ، تعبير عن الامس يريد ان يضع مخالبه في يومنا نحن .. يضع مخالبه في ساعات تخصنا نحن ، لتسيره وتطمئن من قبرها على نفوذها الذي مكنت له .. انها خيوط من الفولاذ ممتدة من الاضرحة والقبور والكتب الصفراء ، لتربط وتشل حركة العصر الجديد ذي العظام الطرية ، والذي يحاول ان يتسلل من بين هذه المخالب ، مستخدما لذلك المنطق والحجة .. ان يتسلل ويعيش في هواء نقي بدون سموم . .

وللتقاليد اضعاف القوة التي للسلطة ، فالسلطة تعتمد عليها لتثبيت اقدامها ، وهذا بدوره يعود على التقاليد بسطوة اعظم ، ويأتي يوم تصبح السلطة فيه هي التقاليد بالذات .. والجمهور يأخذ باحكام التقليد لانه ضرب من ضروب الحياة التي تمرسوا بها وخاضوها حتى الرقاب، وهي لا تستلزم ان يحيا الانسان وجوده في صراع او تفكير ، بقدر ما تستلزم اغماض العينين والاعتماد على المقدر والمكتوب والانصياع .!! والفكر في شرقنا العربي يؤهل الجو لمثل هذا الانصياع ، والجمهور يطابق بين اعتقاده هو ، وبين اعتقاد الفكر ، (ولا تناقض في هذه العبارة ازاء فكرنا في الشرق العربي ، والذي هو تقليدي محض) ويضرب بحريته الارض !. فالحرية عملية دخيلة وغير مطلوبة ، وما الذي تعود به غير المخاطرة .؟! اليس اسهل من ذلك ان نكون (اولادا طيبين) فننعم برضى الرب والحكام واولى الامر لنا .؟! ولن يستلزم ذلك اكثر من ان نقول نعم .. !!

.. الجديد ، والحرية . ؟!

ذلك ما يجعلهم يتثاءبون ويقذفون بضجرهم ولامبالاتهم: ففي خلال اعمارهم جميعا ارضعوا وامتصوا ومضغوا ورشفوا افكارا ليست افكارهم . افكار آبائهم واجدادهم . ديانتهم ومنطقهم وعباراتهم التي يهدونها في ظرف متصنع الى اذن الضيف ، والارمل ، والتاجر الدائن .! انهم يرثون كل شيء عن الالهة التي ربتهم ، وهم راضون

بذلك ، لان الكتاب المقدس ، وتعليمات الدين ، وكل اشكال الادب والشعر والفنون التي تعلموها ، تؤكد على انصياعهم وتبعيتهم .. فاذا اتى (مفكر) من الشباب وطالب بقدر من حرية الفكر واللا تقليدية .. ثار الجميع بدون تفكير ، كما تفجر ذرة وحيدة سلسلة من الانفجارات المتتالية الميكانيكية ، واعلنوا كفره وعصيانه واستحقاقه للقتل والتحريق .. !

ان على الشباب ان يفكر كما نفكر نحن وكما فكر آباؤنا ، وان عليهم ان ينبذوا كافة المساخر التي ينادون بها .. ! وبعد ذلك يموت الاباء بعد ان لونوا الشباب بمدادهم هم ، يموتون مستريحي البال .. فالى الف عام قادمة ستظل عقائدهم سائدة ومسيطرة ، وسيكون ابناؤهم نسخا متتالية منهم ، يفكرون بطريقتهم ويتكلمون بطريقتهم .. (*) ويظل العصر يعيد نفسه كل مرة، نسخة قذرة عن النسخة السابقة لها .. وينتصر الرجال الميتون من داخل قبورهم علينا وعلى ارادتنا ورغباتنا واحكامنا، كأحياء ومالكين للعالم .. !!

التقاليد هي الافكار (والخرافات والعواطف والحكايات والاوهام التي تسيطر على مشاعر اناس حرموا الضياء النادر للعقل ، او طمسوه تحت الحاح الضغط التقليدي الذي يعتمد على العاطفة ، واذا كان للعقل مدافع واحد ، فللعاطفة مئة ، فاسهل الف مرة ان تستميل الاهواء، من ان تقنع بالحجة ، وكل الدجالين والخطباء يعرفون ذلك ويطوعونه لخدمتهم تماما ، والتقاليد تستغل هذا الضعف البشري فتنفذ من هذه الثغرة الى كامل الجسم الانساني وتنخره من الداخل ، ولا تتركه الا حطاما ، فالاهواء والاوهام هي التي تسير التقليدية وتخضعها ، اما العقل فهو اداة ديس عليها والقيت فوقه الاف الاطنان من السحر والخرافات ، وهو بعد ذلك (شاهد زور) يوافق على كل ما تؤمن به التقاليد وترغب فيه .! وقد عرفت التقاليد ان هذا المكافح الفذ الذي اسمه العقل ، لا يقنع ابدا ولا يمكنه ان يرضى عن الايمان الخرافي من مثل (ومد موسى يده على البحر . فاجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء . فدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ..) ـ التوراة . خروج ١٤ـ٢١ـ فلا بد ان تكون الحقيقة رياضية وموضع تجربة ابدية ليمكن الموافقة عليها والرضى بها ، واذ ادركت التقاليد مدى عنف هذا المعارض القوي ، حاولت بكل الطرق ـ ونجحت في ذلك بشرقنا العربي ، وبصورة اجرامية ـ منع الذهن وشل امكانياته ، وطيه تحت جناح العاطفة القوية ..

(*) امثلة عجيبة يمكن ان تكون شاهدا على تكرار العبارات التقليدية الميئوس منها ، وفي كل قطر عربي عبارات خاصة به يمكن للملاحظ ان يراقبها في مجالات الحياة المختلفة وخاصة في المآتم والافراح ولقاء الاصدقاء. كل جملة لها ردها ، والباديء بالحديث يدرك مسبقا رد الاخر الذي يعرف بدوره جملة البادىء ـ قبل ان ينطقها..!!

منذ الف عام ويزيد طبخ شرقنا العربي على هذه الصورة التي نعيش عليها اليوم ، وربما غدا (!!) ماتت اجيال وتقدمت اجيال واجيال واجيال تشرب من نفس البئر التي شربت منها العصور السحيقة ، وفكرت بالشكل ذاته الذي فكرت به الاجيال السابقة ، وفي مأساتنا هذه ، لم تكن السلطة هي الجدار الذي تكسرت فوقه قبضات المفكرين العرب النادرة ، بقدرما كان الجدار عواطف الجمهور ورضاه ، فقد كانت السلطة احيانا اضعف من ان تقف وحدها ضد تيار الاذهان الشاكة والمتحررة ... ولذلك استخدمت عواطف الجمهور وقوتها ، واختفت هي قانعة بالنتيجة وفي ذهنها التجارب السابقة التي مارستها السلطة في التاريخ ..

العادة هي الصورة الاولى للتقاليد ، اما الصورة الاخرى فهي الدين .

ان الحقيقة لا تعرف الا بمقدار ما يتفق عليها الجميع ويرضون عنها ، واذا حدث واعلن فرد واحد شكه في منطقيتها ، تزلزل مركزها واصبحت عرضة للانسحاق . والحقيقة الدينية لا يتفق عليها الجميع ، لا نها ضد المنطق والرياضة ، وتؤكد على الخرافة والوهم ، اما الحقيقة التي لا يمكن لواحد من الافراد ان ينكرها وان يشكك في قيمتها فهي الحقيقة الرياضية العلمية (٢+٢=٤) والتي تعتمد على التجربة والمنطق . الدين صورة من صور التقاليد تؤكد على الانصياع والعبودية والرضى بالواقع ، وهذا الايمان المشكوك في نتائجه يساهم في قتل البقية الباقية من صور الارادة والتحرر التي للفرد الحديث ، والحقيقة الرياضية لا تظهر الا في جو تحكمه الحرية وارادة الفرد والجمهور ، وبذلك اصبح وجودنا ذاته مصلوبا في التناقض والتضارب واليأس . .

الدين يؤكد السلطة، والسلطة تستعين باحكام الدين على منع روح العلم والنطق ، وتشريد الاحرار الذين ينادون بقص اجنحة الدين ، والتقليل من مظاهره التدميرية ..

وفي تاريخ المسيحية القديمة التي كانت تنادي بحرية الفكر في عهد الاباطرة الرومان ، ثم كان اول اعمالها حين تسلمت السلطة ان شجبت حرية التفكير وحرية العقيدة ، وقتلت واحرقت ومزقت الوثنيين ونكلت بهم .. في تاريخ هذا الدين والاديان الاخرى ايضا من المواقف المحزنة والوحشية ما يجعلنا نؤكد على وجوب المناداة بحرية الفكر اولا قبل ان نجادل منطقية الدين او لامنطقيته ..

الفكر بناء معنوي قائم فوق الاساس الطبيعي للمجتمع، و يمكن لهذا الاساس ان يجمد او يتوقف ، وحركته هذه، لا بد ان تحرك البناء الفكري معه ، فاذا حدث ورفض هذا البناء الحركة فانه ينهار كلية ، مخلفا في الميدان جيلا فاسدا عديم الحيوية ، جاهلا ، منهار القيم ، شديد اليأس .. (ويمكن لهذه النتيجة ان تحدث لا بجمود الذهن عن مسايرة تطور الاساس الطبيعي للمجتمع ، بل بمجرد

المقابلة بين هذا الجمود ، وبين تفتح مجتمع فكري اخر .) وتصبح الاذهان عطالة بدون فائدة ، وفي نهاية الامر يستغني هذا المجتمع كلية عن الذهن ، قانعا بالزهد والعقيدة يجرهما حتى النهاية .. ويصادف ذلك هوى جامحا في نفس السلطة ، واذا بها ترضع هذا الكره للعقل وترضعه الاخرين ، حتى يتم لها في اخر الامر الحكم بكل اشكاله .

فعلى مر السنوات ظل الحكم المطلق والسجان والدكتاتور الباطش يأكلون الذهن العربي ، ويمعنون في ذلك حتى جاء يوم اصبح فيه التقابل النفسي بين الحضارة الغربية العظيمة ، والحضارة الشرقية الهزيلة واجبا .. واصبح ضروريا اذن ان تراجع متانة الحدود التي كانت حدودنا قبل ان نغامر باجتياز التيار الجديد ! .. ان السلطة تزداد سمنة على حساب رضى الجمهور وقناعته .. وتزداد اذرعتها طولا وعددا ضد كل حركة تبغى الخروج على هذا الوضع المذل .

وآثر المجتمع العربي السلامة بالانكباب على دراسة الكتب الصفراء واستخراج الخرافة والتعقيد التشريعي والبربرية من بين سطورها ثم اتخاذها اخلاقا ..

بل ان التقابل الذي كان سيحدث من النتائج خيرها بين الحضارتين الغربية والشرقية ، يبرر هنا على اساس زيف المجتمع الغربي وكونه عرضا زائلا من اعراض الدنيا الخداعة .. !!

وفقدنا على هذا الاساس ما كان يمكن ان يصبح ركيزتنا في الدفاع ضد التقليدية . ان رفض اتخاذ التقاليد كوسيلة في المجتمع يحتم اتخاذ التحرر والذكاء والوعي والفعل والنشاط وسائل حيوية ، وتحتاج هذه الوسائل زيتا مستمر الانصباب ليكمن لها ان تصبح سهلة ولينة واكثر طواعية ، وهذا الزيت المقدس هو الاستعمال نفسه للوسائل ذاتها .. فكأن عملية التفكير المستمرة تشحم ذاتها بذاتها وتجدد عناصرها وتحيي خلاياها وتماشي التطور وتجدد الحياة .. !

وكلما جمدت خلايا الذهن ، وتشبث الفرد في قوة بالذيل الطائر لجواد الاجداد ، مفضلا ان ينجر ويسحب بدون ارادة ، فان طبقات من الجهل والتعصب والبربرية تتراكم فوقه ، وكلما زادت الطبقات كثافة تحول الانسان نهائيا الى صف البهائم ، وزادت اعوام الفرقة التي تفصله عن الغرب المتطور الملتهب .

ان اول نتائج التقاليد هو تعطيل الذهن ، وبذلك تتأكد الدكتاتورية وتسود الهمجية ويصبح الحاكم ، ليس ذلك الخبيث المستور وراء قصره ، والذي يعرف طبيعة عمله جيدا . !! كلا .! .. انه جارك نفسه ، هذا الرجل الذي كان الى لحظة مستعدا ان يفديك بقلبه .. بهذا الاخر والاخر والاخر .. يضحون حكامك وقاتليك ..

وفي النهاية يقف الجلف الريفي الذي يتوج راسه بعمامة خضراء مرقعة ، والذي يحمل بين اصابعه تسعا وتسعين حبة زيتون في مسبحة ، تاركا لحيته وشاربه الوسخين في كامل نموهما .. الكحل في عينيه والزبد والقذر في فمه وجسده المقرف .. هذا الرجل يصبح آلهك وحاكمك باسم العقيدة والانبياء .. !

الفان من السنوات عبرت فوق هذا الجسد المسجى الذي اسمه الشرق العربي بدون ان تستطيع ايقاظ ذهنه ، وكل الذي فعلته تراجم ارسطو بواسطة شراحه الشرقيين ، هي ان عرّفت بالذهن اليوناني مئات من الافراد الممتازين العرب ، وفي الوقت الذي نصّر فيه توماس الاكويني ، ارسطو الوثني ، كان الشرق يستعيد الغطاء فوق جسده قانعا بتوصيل ارسطو كاملا الى الذهن الغربي ... وعندئذ هذا انتصارا كونيا ..!(*)

ان حرية الفكر هي حجرة التفريغ بالنسبة للذهن الحبيس ، هي الارض المطواعة التي تقبل ان يشق لهب اخضر بطنها المسحوق ليعبر عن كيمياء الوجود النادر الذي اسمه الحياة .. حرية الفكر هي التي تمنح العقل الخصوبة والقاع والظهر الذي يسنده وبدونها يستحيل ان تتطور الامة او ان تتقدم ، فاذا كانت السلطة والدين والعادة هي التي تحبس الذهن وتعطله وتصادره وتحرقه ، وجب ان يتقدم الوعي ليطالب بالحد من دكتاتورية السلطة ومن عنت التقاليد ، وكما قلنا سابقا ، فان هذا الوعي ينشأ بطريقين احدهما الطريق الاساسي وهو انعكاس التطور الطبيعي للمجتمع على الفكر ، والاخر هو المقابلة بين المجتمع المتاخر والمجتمعات المتطورة ..

الدين في اوروبا طوطم في ظل جدار فوق مخدع ، ونصف ساعة احناء للراس المشغول بهمومه في اصابيح الاحاد ، باستثناء الايمان القطيعي للبسطاء الذين يزرعون الارز والطماطم في سهول فلورنس وجامعي الكروم في جنوب فرنسا واسبانيا القديمة .!

الدين يموت في اوروبا بتاثير اولئك الابطال النادرين الذين قاوموا سلطة الصليب البشعة ، وقاوموا التهديد بالحرق ، وقتل الاطفال وبتر الالسنة والشوي احياء .(*)

قاوموا كل ذلك لان المنطق كان يؤيدهم ، ولانهم كانوا مع الزمن والحقيقة ، واكبر مأساة في تاريخ العرب الحديث هو خلوه من الشهداء الذين ماتوا في سبيل الحرية ، في حين لا يجد الكاتب او الفرد الحديث في شرقنا العربي عونا من السلطة ، او الاخرين الوقوف بجانبه .. والنتيجة لا تكون ابدا استشهاد هذا الكاتب او الفرد ضد الدين والتقاليد ، بل سمته الابدي وتخليه عن شرفه وضرورة كفاحه ..

واذا كانت سطوة التقاليد ترعبنا الى هذا الحد ..!!

(*) « .. الامة التي تعدل مجالسها القروية مرة في كل ثلاث سنوات، لكنها لا تعدل احكام دينها مرة في كل ثلاثمائة سنة ، هذه الامة بحاجة الى ان تخلق من جديد ... » الانسان والسوبرمان ـ (حكم التاريخ) موجز الثوري ورفيق جيبه ـ جورج برنارد شو

(*) يحسن جدا الرجوع الى المؤلف العظيم لبول هازار (ازمة الضمير الاوروبي)

في تاريخنا الاف المتصوفين من طراز القديس اوغسطين، وليس هناك مفكر حر واحد كبير بابيل ..

نحن جبناء جدا اذا كانت السلطة تخيفنا الى هذا الحد.

ان هناك حقا لك لا يمكن لواحد من البشر ان يمنعه عنك ، وذلك هو حقك بالتفكير ، ولا بد ان يستتبع هذا الحق ، حق اخر لا يمكن لواحد من البشر ان يحرمك منه، وهو حقك بالتعبير عن فكرك بالوسيلة التي ترغب فيها . حقك بالتفكير والاعتقاد والشك والاستفهام .. وذلك معنى وجودك كفرد ..

ان العالم هو ملكك ، كما هو ملك للاخرين الذين يحملون الانف والعينين التي في وجهك .. انهم مثلك تماما ، فقد ولدوا من ابوين كما ولدت انت ، ويذهبون الى دورة المياه يوميا كما تذهب انت ، يصابون بالصداع والامساك مثلك ايضا ، يتمخطون ولهم ضعفهم الجنسي وجانبهم السيء ، مثلك تماما ... فاذا كنت واحدا من نفس الجنس والنوع الذي يحكم العالم ويملكه ، فانت اذن من حكام هذا العالم ومالكيه ، واذا كنت كذلك فباشر منذ الان حقوقك ، واولها حقك في الاعلان عن الذي تعتقد انه صحيح .. وحقك في التفكير واعلان هذا التفكير ونشره كما تشاء ...

ولا بد ان يصل الامر بينك وبين السلطة الى السجن والتهديد بالتشريد ولكن هذه الوسائل لم تمنع وما منعت قط في مطلق تاريخ الفكر الغربي ، الذهن ان يبزغ من الظلمات وان يطبع العالم بطابعه ..

لقد عانى الذهن الاوروبي مرارة الصمود ضد احكام الدين وضد تعاليمه وخرافاته، فوق ارض عارية بدون سند وبدون سلاح، لان العلم لم يكن متقدما كما هو الان ، بل ان الذهن الاوروبي اضطر الى استعمال الخرافة نفسها ضد الدين ليستطيع منازلته .. اما الان فهناك صف طويل من العلوم التي تسخر رياضياتها بالخرافة وتسقطها ، وهناك فضلا عن ذلك ، جمود التقاليد الدينية ، وفرصة الفرد في مناقشة احكامها عقليا فرصة كبيرة ، ويمكن دوما ان يهدم الخرافة وان يسحقها .. ان علينا ان نطهر الارض تحتنا من العناكب المشعرة التي تخيفنا باسم المحافظة على تراث الاجداد والاباء ..

ان امامنا معركة خطيرة وحاسمة ، فاما نعيش ونكتب مستقبلنا بايدينا ، واما نموت لنعيش تقليدية اجدادنا واجداد اجدادنا .. ولا بد ان تبدأ هذه المعركة بالمطالبة بحرية الفكر .. المطالبة العنيفة اللا متوانية ، والمخلصة ..

ولنعلم ذلك جيدا : لا بد من قتلى .. ! فالسلطة والتقاليد في شرقنا العربي هما اقوى صور الجمود فيه ، وهما المعقل الذي يجرنا الى ماضينا ويسحقنا ..

واذا قتل منا عشرة او عشرون او الف ، فان الشحم الغالي الذي ينتج من عملية احراقهم ، يكفي لايقاد المشاعل الخامدة في بلادنا .. ويكفي لايقاظنا من المخدر الذي نومنا الفين من السنوات ..

ان علينا ان نبدأ منذ اللحظة ، عملية ايقاظ ذهننا ، وذلك يحتم ان نناقش ونصرخ ونجادل ونكتب ونناقض وندافع ونستميت في سبيل اظهار الحقيقة . ! بيد ان كل هذه المعارك الحيوية التي تدفع بالمجتمعات لا يمكنها ان تظهر في مجتمعنا العربي بدون اقرار مسبق من السلطات بحرية التفكير والعقيدة والنشر .. وذلك يؤكد المظهر الاولى الضروري لنوعية كفاحنا .. اذ يجب ان نبدأ من صداعنا الذاتي : الدين والعادة ..

وضد ذلك .. فلتتقدم السلطة فتسجن اجسادنا وتشنقنا .. ، فذلك بالذات هو انتصارنا ، وشرفنا ..!!

القاهرة — **محي الدين محمد**